المواطنة بين القومية والعالمية

(مقاربة منظومية)

د. نبيلة ناني
أستاذ محاضر في علم النفس
جامعة البليدة 2
profnabilanani@gmail.com

ملخص:

من خلال دراسة تحليل محتوى أجريناها سابقا للتحقق من مدى استجابة كتب التعليم الجزائري لمتطلبات المواطنة، توصّلنا إلى جملة من النتائج اللافتة، من بينها ما يفيد بأن المحتوى موضوع التحليل يعاني من غياب الوعي بمفهوم المواطنة العالمية واهمال متطلبات تنمية احترام الأديان، نبذ العنصرية والانفتاح على الثقافات الأخرى. وما يزيد مدلول هذه النتائج سلبية الواقع العالمي الذي نعيشه اليوم، والذي يتطلب الانفتاح الحذِر والتفاعل الايجابي المدروس بمستويات أعلى من أي وقت مضى. في ورقتنا البحثية هذه سوف نعرض مقاربتنا المنظومية التي انتهجناها وفق ما تقتضيه الاجابة عن التساؤل البحثي التالي:

- هل النقلة الفكرية من المواطنة القومية الى المواطنة العالمية خيار فكري أم حتمية منظومية؟

Abstract:

One of the latest researches that we have done recently indicates that Algerian education contents lack the components of global citizenship, racism renounce and respect for other religions and cultures. These disturbing results drew our scientific attention to the search about citizenship in a different way that can be as far as possible from subjectivity on one hand, and as near as possible to universe harmony on other hand.

In this paper we expose our systemic approach to answer the question:

Is the shift view from national citizenship to global citizenship a systemic determinism or a human choice?

مقدمة:

لن يختلف اثنان على أن أسمى غاية لأي نظام تربوي هي انتاج "المواطن الصالح"، لكن صفة "الصالح" في حد ذاتها هي محل الخلاف الذي لم ولن يُحسم، خلاف تشتد وطأته كلما تباعدت الأطر الزمانية و/أو المكانية من جهة، وكلما تضاربت المصالح من جهة أخرى. كانت المشكلة أقل حدة في وقت مضى، إذ لم تكن التغيرات الثقافية والسياسية والاقتصادية تتوافد على الوتيرة المتسارعة التي هي عليها اليوم، فالتطورات التكنولوجية وخصوصا الاعلامية والتواصلية، والتغيرات الاقتصادية والسياسية المتسارعة صارت تضع المواطن موضع "امتحانات شديدة الصعوبة" في الغالب. أين لا يجد الانسان نفسه مضطرا لمراجعة آرائه فحسب، ولكن لمراجعة مبادئه ومعتقداته أيضا.

اليوم، واستجابة لما جلبته أمواج العولمة من تداعيات على مختلف أصعدة الحياة الانسانية، تعالت أصوات تحذر من ظاهرة الانكماش حتى الضمور، وتنادي بضرورة التوجه نحو "المواطنة العالمية" وإلزام النُّظم التربوية بتكوين "المواطن العالمي الفعّال"، على الجبهة الأخرى أصوات تحذر من ظاهرة الانفتاح حتى التلاشي، وتنادي بضرورة تعزيز "المواطنة القومية" وإلزام النُّظم التربوية بتكوين "المواطن الوطني".

الفريقان يختصمان، ولكلٍّ منهما وجه من الحق، غير أننا كباحثين نقف من الموضوع موقفا مختلفا عن الاثنين وغير مخالف لأي منهما. في الواقع عادت بنا جدلية المواطنة بين القومية والعالمية إلى جدليات علميّة سابقة سالت في سبيلها أحبار وفنت أقلام وفي النهاية لم يصحّ الا ما كان منسجما مع النسق الكوني، فإن اختلفت عقول البشر سواء على خلفية موضوعية أو ذاتية، فإن نواميس الكون لا تخالف بعضها بعضا.

مما سبق، وبناء على اعتقادنا بأن الفكرة الأصح هي الفكرة الأكثر انتظاما مع النواميس الكونية، فإننا نُقارب جدلية المواطنة بين القومية والعالمية من المنظور المنظومي الذي يُوفّر لنا أساليب التحقق من مدى منظوميّة الفكرة، وذلك عبر ثلاث خطوات أساسية: 1-أجرأة المفاهيم، 2-رسم حدود المنظومة، 3-تحليل تفاعلات المنظومة.

1- أجرأة المفاهيم[1]:

1-1- المُواطِن:

المُواطن في معجم المعاني الجامع هو: "اسم فاعل من واطنَ"، نقول واطَن سكان البلد يعني: " عَاشَ مَعَهُمْ فِي وَطَنٍ وَاحِدٍ". أمّا بالنسبة للفعل "وَطَنَ" فنقول: وطَن فلانٌ بالمكانِ: يعني "أقام به، سكَنه وألِفه واتَّخذه وطَنًا". من خلال التعريف اللغوي للفعلين "واطَن" و "وَطَنَ" نلاحظ أن الفعل الأوّل يتضمّن مدلول التفاعل، بينما الفعل الثاني يتضمّن فقط مدلول التموضع المكاني في زمن معيّن، والفعل الأوّل يستلزم الثاني إذ التفاعل يتطلب الاستقرار على احداثيتي الزمن والمكان ابتداء. وفي نفس الوقت فإن الفعل الثاني يتطلّب الأوّل، فالكينونة التي لا تتفاعل "لا وظيفة لها" تضمر. والمُواطنة هي مصدر الفعل واطن.

1-2- المواطنة:

لغة هي: "مصدر الفعل واطَن"، وبالتالي فهي لفظ يجمع كل أشكال تفاعل المواطن مع وطنه ومع باقي المواطنين عبر عقد ضمني أو مُعلن يضمّ قائمتي الحقوق والواجبات بالنسبة لكل طرف من أطراف التفاعل. وفي هذا السياق نجد من يعرف المواطنة على أنها "علاقة الفرد بالدولة كما يحددها القانون". (**حفيظة شقير، يسرا فراوس**: 2014، 12)، لكننا نلاحظ أن مختلف التعريفات اللغوية لم تحدد معايير المواطنة المُثلى، فكل مواطن يمارس مُواطنته على شاكلة قناعاته، مع أننا اصطلاحا نجد أن مصطلح المواطنة ينبض بالإيجابية في كل تعريفاته لأن ذلك ما يُفترض أن يكون. وقد اقترن مفهوم المواطنة في بادئ ظهوره بالدولة الاغريقية، توسّع بعدها في روما ثم أعطته الثورة الفرنسية دفعا جديدا، وظل يتطوّر هذا المفهوم بتطور القوانين والحياة السياسية خصوصا، لذلك فهو مفهوم قانوني سياسي بالدرجة الأولى، وبالرغم من أن المواطنة تحددها القوانين والتشريعات السائدة في البلد، لكن قناعات المواطن تبقى محتفظة بتأثيرها وفي أحيان كثيرة نجد أن المواطن يجتهد في تصيُّد ثغرات القانون أكثر مما يجتهد في فهم القانون نفسه.

---

[1] سنركّز هنا على المعاني اللغوية أكثر من التركيز على المعاني الاصطلاحيّة، ذلك أن المعنى اللغوي يعطي أصول المعنى ما يمكننا فيما بعد من معالجته من وجهة نظر منظومية بشكل صحيح، إذ الهدف أجرأة المفاهيم بالأساس.

1-3- الوطنية:

تجمع الأوعية اللغوية العربية على أن الوطنية هي "حب الوطن والاخلاص له والتضحية لأجله"، وبهذا المعنى فإن الوطنية تحمل مدلولا مشبعا بالإيجابية والسمو العاطفي والأخلاقي وهي لا تتعلق بالقوانين والتشريعات لكن تراهن على صحوة الضمير وعلو الهمّة ورفعة الأخلاق لدى المواطن.

1-4- الوطن:

من أفصح ما جاء من تعريفات لغوية نجد تعريف معجم المعاني الجامع بأن الوَطَنُ هو: "مكانُ إِقامةِ الإِنسان وَمقَرُّه، وإليه انتماؤه، وُلد به أَو لم يولد". إصطلاحا تعددت تعريفات الوطن حسب منطلقاتها وزوايا صدورها، لكنها تتفق جميعا على أن الوطن هو "الحيز المكاني الذي يحظى فيه الانسان بعيش كريم".

1-5- حوصلة:

الوطن هو حيّز مكاني معيّن تم اتخاذه خلال مجال زمني معيّن مقرا للعيش الكريم من طرف إنسان يسمى "المواطن"، سلوك هذا الأخير تجاه وطنه بمن فيه يُسمى المُواطنة، هذه الأخيرة تسير بدافع الوطنية، والوطنية شحنة انفعالية بقدر ما تكون إيجابية بقدر ما تجعل من المواطنة سلوكا ايجابيا فعالا يصدر عن "مواطن صالح"، أمّا إذا اشتكت روح الوطنية من ضعف أو سلبيةٍ فإن ذلك ينعكس جليا في سلوكات "مواطن غير صالح".

1- رسم حدود المنظومة:

من خلال المناقشة الاجرائية للمفاهيم السابقة، يمكننا الوقوف على مكونات المنظومة موضوع الدراسة "منظومة المواطنة" كما يأتي: الوطن، المواطن، الوطنية، المواطنة.

لكن وفقا لواحدة من القواعد الكبرى للفكر المنظومي فإن مجموع مكونات النظام لا يساويها مجتمعة :

$\Sigma n \# n_1+n_2+.....n_x$

ومنه علينا ضبط تراتب مكونات المنظومة قبل ضبط حدودها.

المواطن يحتوي المواطنة كسلوك ظاهر للعيان يُبديه خلال حياته اليومية، الوطنيّة أيضا يحتويها المواطن كشحنة انفعالية تحرّك سلوكه وتغذّيه، أما الوطن فيحتوي المواطن نفسه بكل ما يحتويه. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا:

- ماهي حدود الوطن؟
- هل ينتهي الوطن أين تنتهي المواطنة؟
- أم تنتهي المواطنة أين ينتهي الوطن؟

سنجيب عن هذه الأسئلة، ولكن ذلك لن يتسنى لنا الا بعد تمام تحليل تفاعلات منظومة المواطنة.

2- تحليل تفاعلات المنظومة:

بداية فإن الوطنية كمكون وجداني في شخصية المواطن لا ينفصل عن معارفه وسلوكه، فشخصية المواطن كل متكامل والوطنية بطبيعتها الوجدانية الخفية هي المحرك الأساسي لمواطنته ذات الطبيعة المُعلنة الملموسة، وبالتالي فإن المواطنة هي الدّال على مستوى وطنية المواطن.

بالنسبة للتفاعل مواطن-وطن: فإن المواطن الذي يتمتع بالروح الوطنية العالية وبسلوك المواطنة السليم هو المواطن الصالح الذي ننشده دائما.

ولكن على فرض أننا نعني بالوطن الدولة ها هنا. نتساءل: هل السلوك الذي يسلكه مواطن في دولة ما تنحصر نتائجه ضمن حدود دولته؟

الجواب لا استنادا الى ما أتت به نظرية الفوضى لصاحبها إدوارد لورينتز عام 1963 وهي من أحدث النظريات الرياضية الفيزيائية. إذ تفيد هذه النظرية بأن تغيرات بسيطة تكاد تكون مهملة تحدث في نقطة ما من العالم، يمكن أن تؤدي الى تغييرات كبرى في نقاط أبعد عنها بكثير منه، وهذا ما نجده واقعا ملموسا تجسّد في كثير من الأحداث، ويزداد طرح هذه النظرية تأكيدا يوما بعد يوم لما لوسائل العصر من دور في تسريع وتعميق التفاعلات عبر كل الأزمنة والأمكنة، والأمثلة على ذلك كثيرة.

فالمواطن حين يلوّث البيئة داخل حدود دولته فهو يلوّث كوكب الأرض ويساهم في اتساع ثقب الأوزون، وحرارة الكوكب حين ترتفع فهي ترتفع في كل الدول دون استثناء. والمواطن حين يهمل صحته ونظافته فهو يتسبب في انتقال الأوبئة والأمراض الى مختلف بقاع الأرض، وهو حين يحمل أفكارا عنصرية أو عدوانية فهو يؤذي بها مختلف بقاع العالم سواء نفسيا، فكريا أو بدنيا.

أبعد من ذلك، إن السلوكات غير الرشيدة التي يسلكها الانسان "المواطن" لا تنحصر نتائجها داخل حيّز كوكب الأرض ولكن تتعداه لفضاءات أخرى قد نعرفها وقد لا نعرفها أصلا. فالكون وفقا لنظرية النظم على قدر من الاتساع يستحيل معه حصره وضبط حدوده، وبالنتيجة فإنه ليس بوسعنا أن نحدد نقطة معينة من الفضاء لنقول أن آثار حماقات الانسان "المواطن" ستتوقف ها هنا.

الخلاصة:

لطالما اعتقد الانسان أن صلاحه لوطنه هو أقصى ما يمكن أن يُطلب منه، لكن ومع تطور وسائل التواصل والاتصال وانفتاح المجتمعات على بعضها البعض، اتضح أكثر من ذي قبل كم أن عالمنا صغير والتأثيرات فيما بين مكوناته مباشرة وفارقة. لقد انتشر مفهوم المواطنة العالمية (الكونية) خلال القرن الحادي والعشرين نتيجة عدّة عوامل من أهمها: الحركات التحررية في العالم، ظهور الاتفاقيات والمنظمات الدولية لحماية حقوق الانسان والمواطن، وسيادة الاعتقاد بأن مصائر الشعوب مرتبطة ببعضها البعض عبر الزمن والمكان. حيث اتضحت عيوب الفكر التحليلي التجزيئي الضيق الذي يراهن على القوميات ويحرم المجتمع البشري من مكاسب اللحمة والتكافل، فالمواطنة في فحواها ما هي إلا ذلك التفاعل القائم بين الانسان ومحيطه، ليتبادل طرفي التفاعل التأثير والتأثر فيما بينهما، وتكون النتيجة من جنس التفاعل إن إيجابا أو سلبا.

قائمة بأبرز المراجع:

- **حفيظة شقير، يسرا فراوس** (2014): الشباب والمواطنة الفعالة، دليل مرجعي، صندوق الأمم المتحدة للسكان وائتلاف حافلة المواطنة، تونس.
- **محمود خليل أبو دف** (2011): تربية المواطنة من منظور إسلامي، الجامعة الاسلامية، غزة، فلسطين.
- **فهد ابراهيم الحبيب** (2005): "الاتجاهات المعاصرة في تربية المواطنة"، ورقة عمل مقدمة للقاء الثالث عشر لقادة العمل التربوي، الباحة، المملكة العربية السعودية.
- **Marco Galiero, William Grech and Dominik Kalweit** (2009): "Global citizenship education, the school as a foundation for a fair world", This book has been published on behalf of the Conectando Mundos Consortium made up of Cidac, Inizjamed, Intermón Oxfam and Ucodep.
- **Muhammad Faour and Marwan Muasher** (2011): "Education for Citizenship in the Arab World Key to the Future", The Carnegie papers, Carnegie Middle East center, Carnegie endowment for international peace.
- **Michael A. Peter, Alan Britton and Harry Blee** (2008): "Global citizenship education; Philosophy, theory and pedagogy", Contexts of education, sense publishers, ROTTERDAM, TAIPEI.
- **Michael O'Sullivan and Karen pashby** (2008): "Citizenship education in the era of globalization; Canadian perspectives", Contexts of education, sense publishers, ROTTERDAM, TAIPEI.